بركات جمال الدين

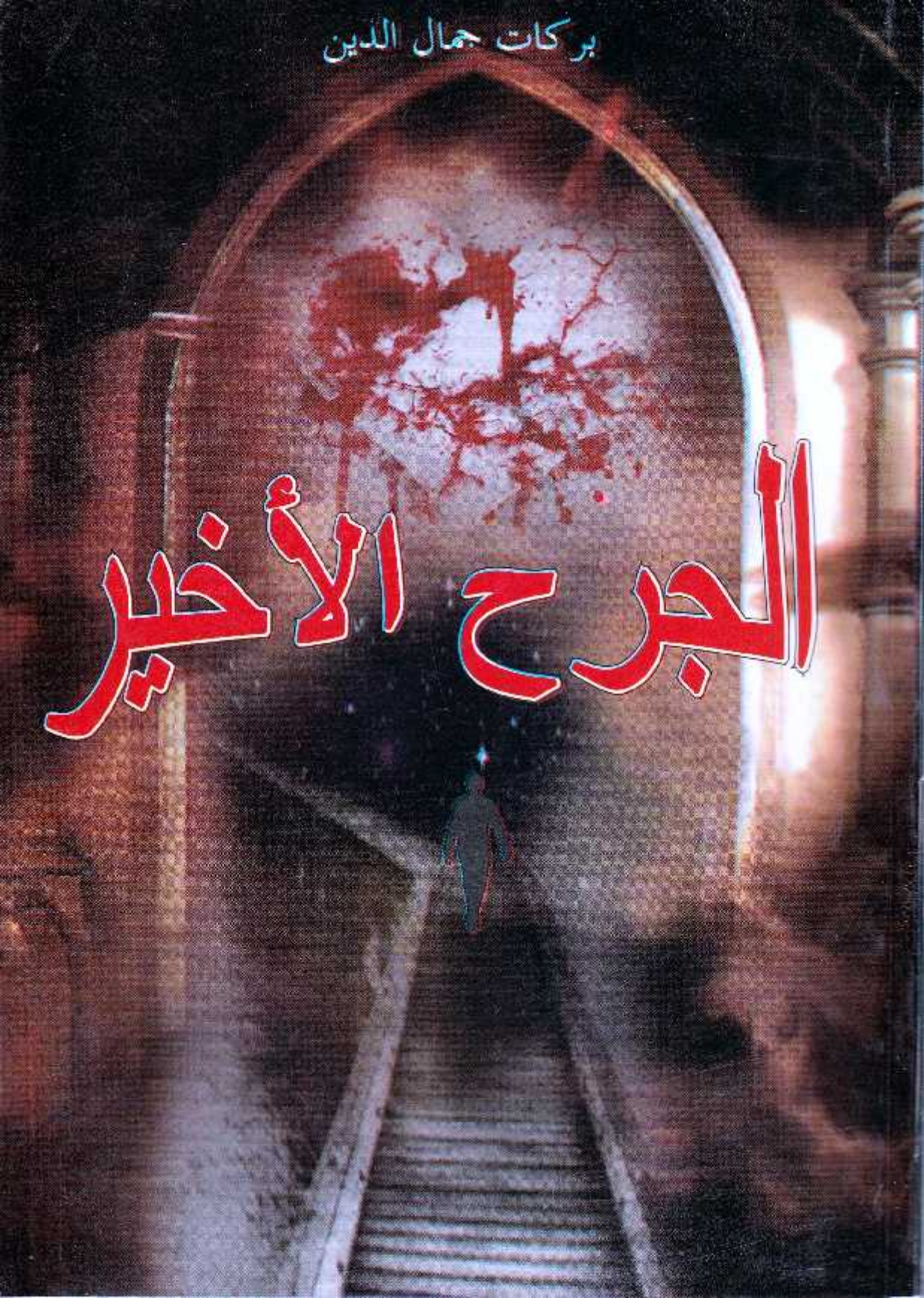

الجرح الأخير

ملاحظة

... " تلك هي النهاية، هكذا يشعر الإنسان بها، وهكذا تبدو الحياة في مواجهتها ". كما يقول الكاتب في عرضه اللحظات الأخيرة من حياة "ماثيو" في مسرحية "طرق الحرية".

وأنت...، هل تخيّلتَ النهاية هكذا؟ هل كانت اللحظات الأخيرة التي رسمتَها لضلاله بكل هاته السرابية؟... والتي رسمتُها أنا... هل كنتَ تتوقّعها بكل هاته السخرية والهراء؟. ماذا كنت تنتظر؟. هل كنت تظنّ أن تجري الأحداث غير هذا المجرى؟. وتسلك غير هذا السبيل؟. كأن تنهض أمّه من قبرها تستقبله بالضمّ والشمّ والقبلات، تهنّئه على هذه المشرحة البطولية في حقّ قلبه وروحه الضعيفتين؟. كأن يعود يوم عيد ميلاده ــ صدفة ــ فيجد الشموع المتلألئة في انتظاره، والأهل والأحباب والأقارب يعلنون الأفراح، ويتبادلون قطع الكعك وكؤوس المشروبات على شرفه حين قطع مسافةَ سنةٍ جديدة في مشوار عمره الكئيب؟.

من جهتي... لم أكن أعتقد أن نفاذ حبري سوف يكون فوق هاته الكلمات. ولا كنتُ أظنّ أنّ هروب الكلمات سوف يصادف هذا العجز الحركي في مفاصل اللغة فوق سرير النهاية الأخيرة. أظن أنّ ألف نهاية من بين نهاياته التي اطلعتَ عليها أنت تصلح أن تُختم عليها سمفونية عذابه، وتُسدل بها الستائر. وينفضّ عليها الجمهور منطفئ الشاشة، تالف الذاكرة. مغربلا بأسئلة حيارى. وحائرا في سؤال غريب؛ كيف تنتج الحياة قصصا كهاته؟. وهل حقّا بين ضلوع الحياة يتحرّك أناس بكل هذا المقدار من الألم والضياع؟.

كنتُ أستطيع أن أكفّ الأسئلة، وأن أسلك نهاية غير هذه، نهاية غير التي حدثت. لكن... ماذا سأجني بعدها سوى تلافيف الضمير الملتهب كما قال لي ذات صفحة. وحذّرني أن أقود الحقيقة إلى غير وقائعها. لقد كان من الأول يخشى عليّ أن أضيع بين المغامرة

والمراوغة. مغامرة الترقّب، ومراوغة اليقين. لهذا... أظنّه أسدى إليّ تلك النصائح العرجاء لما ضاعت منه قدرة الوقوف. فقد كان يعلم أنّي سأمرّ بذات التجربة... التعرّج بين ألف الإهداء، وهمزة القطع مع أواصر اللغة. وشتان بين ما تعثّرت عليه خطاه، وبين ما يختُر مداد لغتي في عروق القلم.

صدّقني... حتى أنا وجدت نفسي فجأة تائها أمام هاته النهاية البائسة. لكن... لا تفقد الأمل مثلي، فمن قال، قد تكون هاته مجرد مقصورة القطار عندما فاتنا انطلاقه، التي ستتحول قاطرة أثناء طريق عودته إلينا. وبين القاطرة والمقصورة دعنا نكن أنا وأنت عربة تساير الأحداث، وتواكب السير ولا تترك من نفسها كتلة حديد قاسية ثقيلة تعجز الزلازل عن تحريكها.

إلى ذلك الملتقى... أعدك أنّي سأظل أسأل عنه وأستحثّ عنه الخطى علّني أعثر عنه ذات يوم وأريح قلبي من هذا الثقل العظيم. فأنا كذلك تفزعني هاته النهاية وتؤرّق نومي ليلا بعد ليل.